مجلة العدوي للسانيات العرفنية وتعليمية اللغات
Issn: 2773/ 3300
http://www.asjp.cirect.dz/en/presentation Revue/ 804
المجلد:04العدد (01) نوفمبر (2024) ص 87 / 97

التعليم العربي في منطقة القبائل، ابتدائية "الصنادلة" أنموذجا

Arab education in the Kabylie region - Al-Sandala Primary School as a model

صـــــافية دراجي *
جامعة بجـــــــــــاية (الجزائر)
Safia.Derradji@univ-bejaia.dz, ALGÉRIE

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2024 /06 /03
تاريخ القبول:
2024/06 /11

الكلمات المفتاحية:
- ✓ تقييم المكتسبات
- ✓ اللغة العربية
- ✓ السنة الخامسة

الملخص:

إن نجاح العملية التعليمية التعلمية مرهون بالنظر إليها باعتبارها أمانة كبرى تحمل على عاتق المعلم والمؤسسة التعليمية، ورغم تطور الطرائق التعليمية والمناهج والآليات والأدوات إلا أنه لاحرج في اعتماد روح المسؤولية التي اتسم بها الأولون لإنجاح التحصيل العلمي، فقد نجح النظام التعليمي القديم في الجزائر إلى حد كبير رغم محدودية الإمكانات، ورغم تقليدية الطرائق التعليمية التي قامت على أساس التفاعل والتلقي غير أن الأولين اتسموا غالبا بروح المسؤولية ويقظة الضمير، وكانت عقيدتهم أداء واجبهم عن رغبة وحب: حب التعليم، حب النجاح، حب الريادة. وفي هذه الورقة البحثية لابأس أن أتناول أنموذجا عايشته واكتسبت مهاراتي التعليمية من خلاله.. وهو أنموذج تعليم اللغة العربية في منطقة القبائل.. وقد تاولت مدرسة الصنادلة التي عدت مدرسة رائدة في التعليم العربي على مستوى ولاية بجاية لعقود من الزمن. مؤكدة أن الطريقة القديمة التي اعتمدت في هذه المدرسة لتعليم اللغة العربية كانت فعلا ناجحة، حيث كانت تنظر للتعليم على أنه رسالة وللغة العربية على أنها لغة مقدسة تعليمها واجب مقدس لكل صاحب ضمير حي لأنه مرتبطة بعقيدتنا

Article info

Received
03 / 06 / 2024
Accepted
11/ 06/ 2024

Abstract :

The success of the educational learning process is dependent on regarding it as a major responsibility carried by both the teacher and the educational institution. Despite the development of teaching methods, curricula, mechanisms, and tools, there is no substitute for embracing the spirit of

responsibility that was evident in the past to ensure academic success. The old educational system in Algeria largely succeeded despite limited resources. Despite the traditional teaching methods, which were based on interaction and reception, the predecessors were often distinguished by their sense of responsibility and conscientiousness. Their creed was to perform their duties out of desire and love: love for education, love for success, and love for leadership. In this research paper, I can address a model I have experienced and through which I have acquired my teaching skills. I will discuss the school where I studied, which is the Sanadla School in Kherrata. This school was a leader in education and was ranked first in Bejaia Province for decades, as acknowledged by our teachers and the school principal Similarly, the Sanadla Intermediate School was also ranked first in Bejaia Province during that period. Before that, I addressed the statue of language in Algeria in general and in the Kabylie region in particular, discussing .

Keywords:
- ✓ *the evaluation of gains*
- ✓ *The Arabic language*
- ✓ *the fifth year*

.

مقدمة:

تعد الجزائر من البلدان الرائدة في تطوير التعليم والنهوض بالعملية التعليمة التعلمية، باعتمادها على منهاج مدروس مضبوط، إدراكا منها أن التعليم أساس لبناء الحضارات، بتكوين جيل مفكر عالم عامل ينهض بالتنمية ويصنع التغيير.

ولأن التعليم في الجزائر في مراحله الأولى يقوم على اللغة العربية التي تعد وسيلة وهدفا في الآن ذاته، كما تعد المقوم الأساس والرئيس للهوية الوطنية، لذا فقد انصب الاهتمام عليها حتى في فترة الاحتلال الغاشم الذي سعى إلى القضاء عليها بنشر سياسة التجهيل ومنع تعليمها والعمل على استبدالها بلغة المستعمر.

وإذا كان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين فضل كبير في الحفاظ على الهوية الوطنية وإبقاء شعلة اللغة العربية نيرة، فإن هذه السياسة ورثت لجيل الاستقلال الذي بقي محبا للغة العربية عاشقا لها، لكونها لغة وطنية رسمية ذات بعد روحي حاملة لوعاء ديننا الحنيف.

وكان التعليم في العقود الماضية أكثر أمانة، وكان المعلم صاحب رسالة، ينظر إلى التعليم على أنه رسالة مقدسة، الإيمان بها وتعليمها على أحسن وجه باب من أبواب نشر الإسلام.

ولم تكن منطقة القبائل بمعزل عن هذه الرؤية، فكان تعليم اللغة العربية ناجحا إلى أبعد حد، وقد أهدت المنطقة للجزائر وللعالم بأسره علماء أجلاء ذاع صيتهم، يشهد لهم بسبق علم تكونوا في مدارس عربية جزائرية.

ومن بين المدارس التي يشهد لها بالريادة في تعليم اللغة العربية وتكوين إطارات جادة في هذا المجال نذكر مدرسة "الصنادلة" إحدى مدارس ولاية بجاية التي اعتمدناها لننظر في مدى نجاح التعليم العربي في منطقة القبائل، هذه المنطقة ذات الخصوصية اللغوية لكون سكانها يتحدثون اللهجة القبائلية باعتبارها لغتهم الأم.

وقبل النظر في المنهاج التعليمي الذي اعتمدته مدرسة "الصنادلة" عرجت على واقع اللغة في الجزائر عموما وبلاد القبائل خصوصا مع الحديث عن قيمة اللغة العربية الفصحى باعتبارها اللغة المعتمدة أساسا في المؤسسات التربوية - التعليمية.

والإشكالية المطروحة هنا متعلقة بواقع اللغة العربية في منطقة القبائل في ظل التعددية اللغوية..

فكيف كانت العملية التعليمية التعلمية في هذه المدرسة؟

هل كانت اللهجة القبائلية حاجزا أمام نجاح العملية التعليمية التعلمية التي كانت باللغة العربية؟

واعتمادا على هذه الإشكالية ارتأينا النظر في خصوصية منطقة الصنادلة بصفة خاصة، ومنطقة القبائل بصفة عامة باعتبار أن لغة السكان الأم هي القبائلية، كما سنتطرق إلى الطرائق التي يعتمدها المعلم في المراحل التعليمية الأولى، مع الإشارة إلى صعوبة التواصل بغير اللغة الأم التي نشأ عليها الطفل.

وربما سنتوقف عند أهم عنصر وهو نجاح العملية التعليمية التعلمية، وتمكن التلميذ من اتقان اللغة العربية واستيعاب المواد المقدمة له في المرحلة الابتدائية وصولا إلى مرحلة الجامعة، وتخرجه بشهادات عليا بجدارة واستحقاق.

الواقع اللغوي في منطقة القبائل:

قبل الحديث عن قيمة اللغة العربية وطرائق تدريسها واكتسابها لابأس من التذكير بأن الممارسة اللغوية في المجتمع الجزائري عبارة عن سيرورة تاريخية ممتدة عبر حقب تاريخية مختلفة.. انطلاقا من الأصل الأمازيغي لسكانها، مرورا بالتواجدات الأجنبية، ثم ما كان من فتح إسلامي أعتبر وثبة حضارية غيرت معالم العالم بأسره، وكانت الجزائر من الدول التي من الله عليها بفتح نوراني أخرجها من الظلمات إلى النور.

ثم تعرضت الجزائر لاحتلال غاشم استوطن الأرض لأكثر من قرن وثلاثين سنة، وكان لهذا الاحتلال مخلفات سياسية خطيرة مست الواقع اللغوي للمجتمع الجزائري، خصوصا منطقة القبائل

التي اشتغل عليها الاحتلال الفرنسي ليتركوا وراءهم -كما قال بعض قادتهم- قنبلة موقوتة تنفجر في وجه الإسلام والعروبة ووجه الوحدة الوطنية.

التعدد اللغوي في الجزائر:

هناك تعدد لغوي واضح في الجزائر أفرزه التاريخ العريق للدولة، فضلا عن المؤثرات الخارجية ودوافع العولمة ومحاولة اللحاق بالركب من خلال الاطلاع على ثقافة الآخر عن طريق التحكم في أكبر قدر ممكن من اللغات. كذا الخيارات السياسية التي تبنتها الدولة الجزائرية بعد الاستقلال.

لكن يظل البعد التاريخي هو الذي صنع التشكيلة اللغوية المتعددة للمجتمع الجزائري بمختلف أطيافه.

وفضلا عن تعدد اللغات يمكن الحديث عن عشرات أو ربما مئات اللهجات المتواجدة في الجزائر، التي يشملها الطابع المحلي، والمتباينة بين منطقة وأخرى وبين فئة سكانية وأخرى.

فلو أخذنا اللهجة القبائلية مثلا نجد قبائليات عدة متعددة، فهناك قبائلية سكان خراطة، وقبائلية آيت سماعل، وسوق الاثنين، وبجاية و البويرة وتيزي وزو، وفي تيزي وزو نجد اختلاف بين منطقة وأخرى، فلهجة ذراع الميزان مختلفة عن لهجة ثاوريرث، ولهجة ثاوريرثن موسى مختلفة عن لهجة فريحة مثلا.

وقد يجد سكان هذه المناطق صعوبة في التواصل فيما بينهم، فيحتكم إلى أكثر القبائليات شيوعا، وأقربها إلى الأمازيغية الأكاديمية، وأكثرها انتشارا وهي قبائلية تيزي وزو مثلا، أو بجاية لافالي.. المشتملة على سلسلة مدن تمتد من لقصر مرورا بسيدي عيش، أقبو، تازمالت. في حين تبتعد لهجة الساحل عنها كثيرا، وربما يلجئ هؤلاء إلى لغة أو لهجة تفك الخلاف بين المتحاورين، لتكون الفرنسية، وحاليا وبعد انتشار اللهجة العربية صاروا يعتمدون على اللهجة العربية غالبا.

وكذلك الشأن بالنسبة للهجات العربية المحلية، فلهجة العاصمة ووهران وقسنطينة، وعنابة، والمسيلة و أدرار و الأغواط وتلمسان وتمنراست وجيجل وبسكرة ، مختلفة عن بعضها البعض تمام الاختلاف.. وقد يحدث وأن تجد نفسك أمام حرج من هذا التنوع، الذي يحمل بعدا ثقافيا مختلفا من منطقة إلى أخرى. فكما تقول خولة طالب الإبراهيمي: "كل مجموعة لغوية تختار لنفسها مجموعة من الطقوس والمفاهيم والمقاييس تضبط التبادلات اللغوية في كل حديث" [1]، وهذا ما يصنع التعدد الثقافي بين منطقة وأخرى.

إن هذه اللهجات المنتشرة في الجزائر عموما هي اللهجات التي نشأ عليها الطفل، أي هي لغتهم الأم التي تلقوها من أسرهم الصغيرة بدءا، ثم من المجتمع الذي ينتمون إليه، سواء اللهجات العربية أو

الأمازيغية. طبعا وهي عبارة عن عادات وسلوكات مكتسبة في السنوات الأربع الأولى من حياة الطفل، وهي شفهية وجوبا، والسماع مسلكها.

تعد القبائلية لهجة أمازيغية، وتختلف الروايات حول أصل هذه اللغة، فمنهم من رد الأصل إلى العرق الهندو أوروبي الذي أقبل من آسيا الصغرى إلى القوقاز، والشواطئ الغربية للبحر الأبيض المتوسط.، ومنهم من أرجع الأصل إلى القبطية وهي اللغة المصرية القديمة. منهم من اعتبرها اختلاف لهجي للغات الأمريكية الهندية[2]. وهذه هي الرواية التي عملت فرنسا على نشرها ومحاولة تثبيتها، أي أن الأمازيغ يشبهون من حيث التركيبة الجسدية سكان أوروبا، ومن خصائصهم البشرة البيضاء والعيون الزرقاء، وإن أصحاب البشرة السمراء إنما كانوا بسبب التزاوج مع العرب بعد الفتح الإسلامي.

وعموما فالأمازيغية رغم صورتها الشفوية إلا أنها مازالت تحافظ على وجودها وعلى استعمالها في الحياة اليومية والتواصل اليومي للناطقين بها، وقد استطاعت أن تصمد أمام التحولات رغم أنها لم تشكل أبدا موضوع وقاية عبر معيار الكتابة، أو الخط، فرغم وجود خط ينسب لهذه اللغة وهو التيفيناغ إلا أنه غير مستعمل، لغياب مرجعيته من جهة، وعدم وجود أو اختفاء معظم الحروف. ورغم مساعي إعادة انتعاشه إلا أنه غير معتمد بسبب صعوبته وبسبب توجه المدافعين عنه نحو الخط اللاتيني منذ أكثر من خمسين عاما .. وتوجه البعض الآخر إلى الحرف العربي، رغم ان الحرف اللاتيني أكثر شيوعا واستعمالا من الحرف العربي الذي يحتاط منه البعض، ويرفضه دعاة العنصرية رفضا مطلقا، وتستخدمه طبقة ثالثة لأنه لا خيار لها، فالكتابة بالخط اللاتيني اعتمدت منذ بداية اقرار الدفاع عن الهوية الأمازيغية، وأغلب المدونات كتبت به، ثم إن الحرف اللاتيني أقرب إلى القبائل المفرنسين من الخط العربي*.

بعد الاستقلال اعتمدت الدولة الجزائرية اللغة العربية لغة وطنية رسمية، مع اعتماد اللغة الفرنسية لغة أجنبية أولى.. فكان في المجتمع الجزائري مزيج لغوي تراوح ما بين اللغة العربية التي تعتمد على نطاق ضيق، اختصت بها الإدارة، والصحافة، ثم التعليم مع حركة التعريب. وكانت اللهجات العربية المختلفة تتحكم في خطاب التواصل اليومي عند الناطقين باللسان العربي.

أما اللغة الأمازيغية بلهجاتها المختلفة فقد كانت لسان تواصل عند الفئة الناطقة بها، في حين اعتمدت اللغة الفرنسية وعلى نطاق ليس بالضيق لكون أغلبية المتعلمين –زمن الاحتلال - كانوا خريجي المدرسة الفرنسية، كما أن الاحتكاك الموجود بين الفرنسيين والجزائريين كفيل بأن يساعد الجزائريين على تعلم لغة المحتل خاصة بالنسبة للمقيمين في المدن. رغم الشعور بكرهها كونها لغة المحتل الغاصب "وأستحضر هنا الأديب مالك حداد" الذي توقف عن الكتابة تماما بعد استقلال الجزائر، لأنه رفض متابعة الكتابة الأدبية بلغة المستعمر، ولأنه لايجيد لغة غير الفرنسية فقد توقف

عن الكتابة نهائيا.. إذن كان الشعور بمقت هذه اللغة ورفضها يسكن كيان المجتمع الجزائري ورغم ذلك تمكنت من فرض نفسها لدوافع أهمها الاحتكاك الطويل بها، وصعوبة التخلص منها لأن هناك من في الطبقة الحاكمة من لا يجيد غيرها، وفي طبقة المتعلمين خاصة مع فرنسة الجامعة، وتخرج العلماء والأطباء بلسان فرنسي أغلبهم يجيده أفضل من العربي. وربما كان للخونة وبقايا عبيد فرنسا دور في تكريس لغتهم بيننا. وبهذا نتجت تيارات لغوية متباينة.

التيارات اللغوية في منطقة القبائل:

نؤكد دائما على أن الواقع السياسي والتاريخي للمنطقة يجعل مكانة اللغة العربية مختلفة إلى حد ما مقارنة مع قيمتها ومكانتها مع بقية مناطق الوطن. حيث ينقسم سكان هذه المناطق إلى:

***تيار عروبي**: وهو التيار المحافظ، المتشبث بالقيم العربية الإسلامية، يرفض الفرنسة، ويرفض الازدواجية اللغوية. يحب اللغة العربية ويعشقها باعتبارها لغة الإسلام ولغة القرآن، واعتبروا أن رفض اللغة العربية الفصحى ومحاربتها هو رفض وحرب علىالبعد الديني لسكان هذه المنطقة. فتجد هذه الفئة حريصة على تعلم اللغة العربية، وقد تتمكن منها تمكنها من لغتها الأم، وربما أفضل.

***تيار مفرنس** : وقد عارض سياسة التعريب، ويفضل الإبقاء على اللغة الفرنسية، باعتبارها النافذة الحقيقية للحضارة، والتفتح على العالم الخارجي. إنها الفئة الرافضة للغة العربية والتي تنظر إليها باعتبارها لغة أجنبية، لغة المستعمر، ولغة يحاول أهلها من اعتمادا عليها للقضاء على هوية السكان الأصليين لهذه المنطقة. فقد تجد من يجيد اللغة العربية ويرفض التحدث بها، وقد لا تجد من يتعلمها أصلا، وتفضل هذه الفئة اللغة الفرنسية بعد الأمازيغية، بل قد تجد من العائلات من يتحدث اللغة الفرنسية في البيت مع أبنائهم إضافة إلى اللسان القبائلي.

علاقة اللغة العربية باللغة الأمازيغية في منطقة القبائل:

هذا الزوج يشكل حالة من حالات الغلبة، فقد عاشت اللغتان معا منذ أمد بعيد.. كما قال عبد الحميد بن باديس: "إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد وحد بينهما الإسلام منذ بضع عشرة قرنا".

غير أننا نجد أن اللغة العربية الفصحى تفرض كيانها في كل المجالات الرسمية، كالتعليم والإدارة، وتستمد العربية الفصحى شرعيتها من الدستور باعتبارها لغة وطنية رسمية. في حين أن الأمازيغية أخذت حقها في كونها لغة وطنية رسمية بعد صراع قوي ومطالب مكثفة، لكن لايمكن بحال من الأحوال أن تبلغ قيمة ومكانة اللغة العربية، مهما ادعى المتعصبون ذلك.

الأمازيغية بلهجاتها تعد لغة المنشأ للمجتمع الجزائري الناطق بالأمازيغية بمختلف لهجاتها، ويعد سكان منطقة القبائل أكثر السكان تعصبا وتمسكا بلغتهم وكل مايرتبط بها من ثقافة وتراث بالنظر إليها

أنها المكون الأساسي لهوية السكان.. ويستميت سكان هذه المنطقة في الدفاع عنها وعن كل ماله علاقة بها من قريب أو من بعيد. رغم أن ادعاء الدفاع عن الأمازيغية عند البعض اعتبارا من كونها دفاع عن الهوية الوطنية، قد استخدم من قبل بعض الجهات لأغراض سياسية تساهم في تهديم كيان المجتمع الجزائري أكثر مما هي دفاع عن الهوية الأمازيغية والوطنية.(وأركزهنا على كلمة بعض) .

كما أن أغلبية الشعب الجزائري يتحدث العربية بمختلف لهجاتها ،وتنحصر اللهجات الأمازيغية في مناطق محددة. ونلاحظ أن الأمازيغي صار يتحدث العربية ليتمكن من التواصل مع اخوانه الجزائريين، في حين أن الناطق باللسان العربي لايتحدث القبائلية مثلا، نظرا لصعوبة تعلمها.

تقدر نسبة الناطقين بالأمازيغية في الجزائر من 20 إلى 25 بالمائة[3] حسب "سالم شاكر" في كتابه "نصوص في اللغة الأمازيغية"، طبعا الكتاب باللغة الفرنسية، ونشر في فرنسا عام 1984.

وحين نتحدث عن القبائلية ستكون النسبة أقل بكثير، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأمازيغية تحوي القبائلية والشاوية والشنويةوالشلحيةوالترقية والمزابية. رغم أن القبائلية هي الأكثر توسعا وانتشارا من هذه اللهجات كلها، والناطقون بها هم غالبية الأمازيغ، وهي التي فرضت نفسها في البرنامج التعليمي من بقية اللهجات. لأنها أقرب إلى الأمازيغية الأكاديمية من غيرها من اللهجات.

*وهناك فئة من المجتمع الجزائري في منطقة القبائل تنظر إلى الأمور بمنطق واحدة بواحدة، فترى أنه ينبغي أن يكون الاهتمام باللغة الأمازيغية كما هو الاهتمام باللغة العربية، وينبغي أن تدرس الأمازيغية كما تدرس اللغة العربية، ولكي تقبل اللغة العربية بينهم يجب أن يقبل الجزائريون جميعا اللغة الأمازيغية، وتدرس مثلها مثل بقية اللغات اجبارا لا اختيارا.

قيمة اللغة العربية الفصحى في المجتمع الجزائري:

تعد اللغة العربية الفصحى لغة رسمية وطنية، وهي من بين الدعائم والركائز الأساسية للشخصية الوطنية، إنها وسيلة للتواصل الفكري والثقافي، لغة كتابية بامتياز، ولغة المنظومة التربوية التعليمية الجزائرية منذ الطور التحضيري إلى غاية الباكالوريا لا تنافس باعتبارها لغة وسيلة ولغة الهدف.

والصبغة الدينية أكسبتها قبولا واسعا، وحبا وعشقا باعتبارها لغة القرآن الكريم، لغة الدين الإسلامي لغة العبادة، فهذه الصبغة الدينية التي أكسبتها القدسية زادتها استمرارا وضمنت لها البقاء راسخة ثابتة يتلقفها الأبناء عن الآباء. رغم أن استخدامها تقريبا ينحصر في المجالات الرسمية وفي الإدارة وفي الجامعة مع بعض التخصصات القليلة التي تدرس باللغة العربية، ونشير إلى أن حتى مع

هذه التخصصات التي تعتمد اللغة العربية يعتمد الأساتذة غالبا على اللهجة العامية في خطابهم مع الطلبة وحتى في قاعات الدرس أثناء الشرح والتحليل. قد يصدر هذا -مع الأسف- حتى من الأساتذة الذين يتخصصون في اللغة والأدب العربي، إذ يتواصلون مع الطلبة غالبا باللهجة العامية المحلية، لدوافع غير مبررة، فيتخرج من الجامعة طالب متخصص في اللغة والأدب العربي ولا يستطيع التحدث لمدة عشر دقائق باللغة العربية الفصحى.

ورغم ما يقال عن التعددية اللغوية في المجتمع الجزائري إلا أن الإشكال الواقع، أو الأزمة الحقيقية التي تعاني منها اللغة العربية في الجزائر هو تدني مستوى تلقيها، وتلقي كل المكتسبات التي يفترض أن تكون مهارات التلميذ.

رغم المساعي المبذولة للنهوض بالعملية التعليمية التعلمية والنهوض بهذه اللغة إلا أن مستوى التعليم يتدنى يوما بعد يوم، على الأقل بالنظر إلى الطلبة الذين يدخلون الجامعة والذين يختارون التخصصات الإنسانية والاجتماعية..

ومن المؤكد أن طلبة اليوم كانوا تلاميذ في الأمس القريب ومروا على كل المراحل التعليمية التي يفترض أن يتكونوا فيها، ليصيروا أهلا لاجتياز مرحلة الدراسات العليا..

فلماذا هذا التأخر؟ وهل يعد التعدد اللغوي سببا في تراجع الرصيد المعرفي للتلميذ؟ أم أن الطرائق المعتمدة رغم كل الإصلاحات لم تكن في المستوى.. إن النظر وإعادة النظر في العملية التعليمية التعلمية لإيجاد أفضل الحلول والوسائل لإنجاح التعليم بات ضرورة ملحة، ويسعى القائمون على هذا المجال إلى إنجاحه بإعادة النظر فيه وفي برامجه التعليمية.

لا مناص من تعلم اللغة العربية بغض النظر عن قبولها أو رفضها في الجزائر بإسرها، باعتبارها اللغة الوطنية الرسمية الأولى، وباعتبار أن المنظومة التعليمية في الجزائر تقوم بها وعليها.. فهي مفتاح لتعلم مختلف العلوم ووسيلة لتدريس المواد الأخرى كلها من رياضيات وفيزياء وكيمياء وعلوم طبيعية، وتاريخ وجغرافيا وغيرها من المواد في المراحل التعليمية منذ الابتدائي إلى غاية الثانوي.

ولامناص من البحث عن كل الطرق الناجعة لإنجاح العملية التعليمية، ولاحرج فيأن نأخذ الأستاذ الناجح قدوة لنا لنسير على طريقه لتحقيق الفائدة المرجوة.

النموذج الصنادلي:

أجدني هنا أورد نموذجا أراه مثاليا وقد أسميته النموذج الصنادلي، نسبة إلى منطقة الصنادلة التي تقع في مدينة خراطة ولاية بجاية، هذا النموذج لايزال يشكل حسب نظري النموذج الأمثل في التحصيل العلمي والنجاح المدرسي.

يتواصل سكان منطقة الصنادلة باللهجة القبائلية في البيت وفي الشارع، وهي لغتهم الأم، إذا كان مصطلح اللغة الأم يشير لأول لغة يتعلمها الطفل [4]". ولايعرفون في صغرهم لغة غيرها، المقصود بصغرهم قبل سن التمدرس"، ولايوجد من يتخاطب بالعربية اللغة، ونادرا ما تجد من يعتمد اللهجة العامية في التواصل، بسبب عامل المصاهرة ولكن ذلك نادر جدا، رغن أن هناك في بعض المناطق المجاورة للصنادلة من يتحدث اللهجة العامية العربية.

منذ ثمانينات القرن الماضي والتلميذ يدخل المدرسة الابتدائية وهو لا يعرف اللغة العربية لا نطقا ولا كتابة، فينظر إليها في البداية على أنها لغة أجنبية، خاصة في العقود الماضية حيث لا احتكاك مع العرب.

طرائق التدريس المعتمدة في هذه المدرسة:

وأنا أتحدث عن مدرسة الصنادلة فأنا أتناول العملية التعليمية التعلمية في منطقة القبائل مع الإشارة إلى أن هذه المدرسة لا تمثل كل مدارس منطقة القبائل، فلكل منطقة خصوصيتها الجغرافية والاجتماعية والثقافية.

من بين الأساليب التعليمية التي اعتمدها معلموا هذه المدرسة:

- منع استخدام اللهجة القبائلية داخل المدرسة، فيؤمر بأن تترك اللهجة القبائلية خلف مدخل المدرسة، خلف البوابة الكبيرة، وكان المعلم يهدد بإنزال عقوبة إن سمع أحدا يتحدث بغير اللغة العربية الفصحى حتى في الساحة، ويؤمر بأن يكون خطاب التلاميذ فيما بينهم باللغة العربية الفصحى.
- تذكرني هذه النقطة بالسياسة اللغوية التي اعتمدها رائد النهضة الجزائرية الشيخ الإمام العلامة "عبد الحميد بن باديس" رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي سنن قانونا يحكم المدارس الحرة التي أنشأها فترة الاحتلال الفرنسي، فرغم سياسة التجهيل التي مارسها الاستدمار الفرنسي ورغم الحصار الواقع على اللغة العربية، إذ كانت اللهجات العربية المحلية واللهجات الأمازيغية واللغة الفرنسية سيدة الخطاب، وسيدة التواصل في ذلك الوقت، رغم كل هذا تمكن الشيخ بفضل جهود علماء الجمعية من إعادة بعث اللغة العربية الفصحى وتمكين الشباب الجزائري منها. ومن المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين تخرج علماء، وشعراء، وأدباء، وفقهاء، منهم من أكمل تعليمه في الزيتونة والأزهر والمدينة المنورة ومنهم من اكتفى ليصير بدوره ملعما للغة العربية والدين الإسلامي في المدارس والمساجد.
- هذا مجرد استشهاد تاريخي.. أعود إلى مدرسة الصنادلة .. حيث كان الأمر باعتماد اللغة العربية الفصحى حتى خارج قاعات الدرس يمس كل الفئات العمرية المتمدرسة، دون أن نستثني تلاميذ

السنة الأولى ابتدائي الذين يلتحقون بالمدرسة مابين سن الخمس والست سنوات، قبل ظهور المستوى التحضيري.

- يطلب من التلميذ في السنة الأولى من التعليم الابتدائي التعبير عن احتياجاته برفع اليد.

يتكفل المعلم في البداية بتقديم يد العون بأن يعطيه مجموعة من الاقتراحات التي توصله إلى رغبته، باستخدام حركة اليدين وإيماءات الوجه، مع تقديم مجموعة من الاقتراحات.. مثل قوله: هل تريد الخروج، هل تريد شرب الماء، هل أنت مريض. ومن الضروري أن يتبع كل صيغة بشرح اعتمادا على حركات اليدين وإيماءات الوجه ليفهم التلميذ قصد المعلم.

ويجتهد التلميذ في الرد على معلمه، وإن كان ذلك بلغة مكسرة أو غير مفهومة أو بالإشارة إلى الباب مثلا إيحاء بطلب الخروج .وبمجرد أن يفهم المعلم قصد التلميذ يدربه على الأداء اللغوي السليم وعلى التعبير الصحيح فيكرر التلميذ العبارة التي لقنها له المعلم، ثم يطلب من زملائه إعادة الصيغة بتان يكررها أغلبية تلاميذ القسم لتثبت في الأذهان..

فالتكرار من الطرائق التي لا يمكن أن نستغني عنها، ورغم قدمها لكنها تظل ذات قيمة كبيرة جدا في العملية التعليمية التعلمية، إذ به تترسخ اللغة قبل المعلومات في ذاكرة التلميذ. وتزداد قيمة التكرار في تعليمية اللغة حين يكون المتعلم صغيرا.

ولأن الحاجة أم الاختراع، والحاجة هي التي تدفع إلى تعلم اللغة ليسهل التواصل فإن التلميذ في هذه المرحلة لن يجد طريقا آخر للتعبير غير اللغة العربية فإنه سيرى نفسه مجبرا على تعلمها.

لم يكن يعتمد إطلاقا على لغة الأصل "القبائلية" لتعين التلميذ على اكتساب لغة الهدف "اللغة العربية".. عكس ما ينتشر مع بعض الطرائق والنداءات التي تعتمد على الترجمة.. ترجمة الكلمات، أو العبارت من لغة الهدف إلى لغة الأصل، ليجد التلميذ نفسه في ملجئ يحميه.. فيتقاعس ويتكاسل عقله الباطن في عملية الاكتساب.

إنه لايشعر بأنه محاصر باللغة الهدف، خاصة وأن اللغة العربية في المؤسسة التربوية هي الرسالة والرسول، فالمتعلم العربي، أو الجزائري، أو المتعلم القبائلي يتعلم اللغة العربية لذاتها كلغة ليتمكن منها ويتحكم فيها، ويتعلمها لأنها وسيلة تعليمية، بها يصل إلى تعلم المكتسبات المعرفية المقترحة في البرنامج.

إذن طريقة التكرار مع محاصرة التلميذ بمحيط لغوي عربي فصيح في مرحلته التعليمية الأولى ستعمل على ترسيخ مجموعة من المهارات التعبيرية الأساسية لدى الطفل.

- التعبير بالصور: تعد مادة التعبير الشفوي من أهم المواد التي كانت ولاتزال تساعد على الاكتساب اللغوي، ودائما أتحدث عن مدرسة الصنادلة. تتكرر حصة التعبير الشفوي أو الشفهي مرات عدة في الأسبوع، تمرينا للتلاميذ على التحدث.

- يهتم في مادة التعبير الشفهي بالأخطاء التي يقع فيها التلميذ في محاولته التكلم، علما أن الاهتمام بالأخطاء بالنسبة للمحلل اللغوي ليس بالأمر الهامشي، بل هو راية حمراء وإشارة على وجود نظام كامل[5]. وعلى المعلم أن ينتبه بذكاء وحدس كبيرين مع بعض الاستدلالات المنطقية إلى جوانب الضعف عند المتعلم، ولماذا يتكرر نوع من الأخطاء بعينه.

فمثلا من بين الأخطاء المتكررة والتي كنا ونحن تلاميذ صغار نقع فيها كثيرا اعتماد نظام المذكر حتى مع خطاب التأنيث، أنتَ أكلتَ، أنتِ أكلتَ. اعتمادا على قاعدة لغوية اعتادها التلميذ في لهجته القبائلية والتي تقتضي بعدم التفرقة بين المذكر والمؤنث في الخطاب، مع أن ضمير المخطاب المذكر مختلف عن ضمير المخاطب المؤنث.. فنقول مثلا: شك ثتشيذ، شم ثتشيذ، أو ختشيثتشيذ، خمي ثتشيذ. يعني أنت أكلت، أنت أكلت. ولكن بالقبائلية أكلت يبقى أكلت بالفتح سواء مع المذكر أو المؤنث.

- إذن في المراحل التعليمية الأولى سينصب الاهتمام كثيرا بمادة التعبير الشفهي، وإن كان للإملاء قيمته أيضا، ولكن تبقى مادة التعبير الشفهي أهم بكثير من مادة التعبير الكتابي في المراحل التعليمية الأولى في مدرسة الصنادلة التي تناولتها كأنموذج. وكما يقول "يكن" الاستماع ثم التحدث، والفهم قبل الكلام"[6].

- يبدأ الاهتمام بمادة التعبير الكتابي بعد أن يتمكن التلميذ من اكتساب قاموس لغوي لابأس به يعينه على الكتابة.وستجد المعلم في حصته التصحيحية لمادة التعبير الكتابي وهو يميز في جدول بين اشكال الأخطاء وأنواعها ويرتبها نحويا وصرفيا ولغويا وتعبيريا، ستجده يهتم بأكثر الأخطاء شيوعا، ليهتم بنقائص التلميذ في الحصص الاستدراكية. إذ يقدم تحليل الأخطاء مساحة أكبر من إمكانيات التفسير لسلوك المتعلم للباحث والمدرس[7]. وهذا باب فعال يمكن من القضاء أو التقليل من أخطاء التلاميذ.

- الجميل أنه في النظام التعليمي القديم لم يكن البرنامج يقيد كثيرا حرية المعلم في اعتماد مهاراته وذكائه لتسهيل العملية التعليمية التعلمية، أنا لاأقول بأنه ينبغي أن نترك حبل الغارب، أو أن لا نضبط العملية، لأن هناك فرق كبير بين معلم الأمس ومعلم اليوم، كما أن هناك فرق كبير بين متعلم الأمس ومتعلم اليوم.. دائما أتحدث عن المنطقة التي أنتمي إليها ومن ورائها منطقة القبائل عموما.

يكفي أن معلم الأمس كان يرى أن تعليم اللغة العربية مهمة شريفة ومهنة مقدسة، وإنه يؤدي رسالة عظيمة، فغالبا ما يربط مابين مهنته أومهمته وعلاقة اللغة العربية بالقرآن الكريم وبالدين الإسلامي، فيرى أنه نوع من الجهاد، أو الدعوة إلى سبيل الله..

لم يكن الواقع السياسي في هذه المنطقة يفرض خصوصيته كثيرا، كانت المبادئ التي تربى عليها المعلم في ظل منطقة محافظة شريفة، تقدس الدين الإسلامي، وتحب اللغة العربية، وينظر إليها بفخر واعتزاز.. ربما إلى حد ما تراجعت هذه النظرة بحكم عوامل كثيرة.

وأستذكر هنا مقولة لأستاذي الطاهر لطرش رحمه الله –ناصحا أساتذة اللغة العربية في كل لقاء به معهم وقد كان مفتشا في السلك الثانوي وكان قبل ذلك أستاذا للغة العربية بثانوية خراطة وتوفاه الله في فترة الكورونا.. ومما يشهد له هذه النصيحة التي لايزال يرددها الأساتذة: "التعليم رسالة ثقيلة، ولحماة الضاد أثقل، ثقتي فيكم كبيرة.. أوصيكم بأبنائنا خيرا".

حين يكون النظر إلى التعليم على أنه رسالة ستكون النتيجة مختلفة، حين يكون القصد هدف أسمى من تعليم لغة هي مجرد لغة سكون النتائج أكبر..

هوامش:

1 خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، دط، دار القصبة للنشر، الجزائر2000، ص174.

2 مصطفى الغربي: الفرانكفونية والتعريب وتدريس اللغات الأجنبية في المغرب، ص13

*ةتبقى الاستثناءات موجودة، ويبقى من الأمازيغ من يرفض كتابة اللغة الامازيغية بالخط اللاتيني، مثل الشيخ محند الطيب مترجم معاني القرآن الكريم إلى الأمازيغية، الذي دون الترجمة كاملة بالخط العربي.

3SALEM CHAKER: Texte en linguistique berbère (introduction au domaine berbère), Ed du CNRS, France, 1984, p9.

4سوزان م جاس ، لاري سلنكر: اكتساب اللغة الثانية . مقدمة عامة، ترج: ماجد الحمد، جز 1، دط، جامعة الملك سعود 2009، ص10.

5سوزان م جاس ، لاري سلنكر: اكتساب اللغة الثانية، ص69.

6مكايسيجواننمكاي وليم: التعليم وثنائية اللغة، ترج ابراهيم محمد القعيد ومحمد عاطف مجاهد، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، السعودية 1994، ص418.

7سوزان م جاس ، لاري سلنكر: اكتساب اللغة الثانية، ص71